

دور الجزائر في نشر الإسلام والثقافة العربية في جنوب الصحراء

أولاً: دور التجار الرستميين

ثانياً: دور الطرق الصوفية

ثالثاً: دور العلماء "محمد بن عبد الكريم المغيلي أنموذجاً"

أولاً: دور التجار الرستميين

يروى لنا ابن خلدون أن بعض فروع هوارة ولمطة المنتشرة ما بين طرابلس وبرقة معقل الإباضية، قد اخترقت الصحراء واستقرت في غاو، ومامن شك أن غاو كان لها علاقة وطيدة بحكام تيهرت منذ القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري. يحدثنا ابن الصغير في تاريخه "أخبار الأئمة الرستميين" عن السفارة التي بعث بها أفلح بن عبد الوهاب إلى ملك السودان، ولايستبعد أن يكون الهدف من المشروع الرحلة هو توطيد العلاقة بين مملكة غاو وإمارة تيهرت، كما أورد أبو عبد الله محمد ابن علي بن حماد (1220/617م) في كتاب "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" قصة رحلة أبي زيد الإباضي (ولد في 1210) صحبة والده كداد إلى غاو، وكان يقوم بالسهر على شؤون الجالية الإباضية هناك. وحسب المصادر الإباضية أن الإباضية وصلوا إلى غاو واستقروا بها منذ القرن الثاني الهجري، أي بعد سنة 122هـ/740م وهو تاريخ الثورة الخوارجية الكبرى، وكانت لمطة قد أخذت مكانها في المنطقة حسب ابن خلدون منذ القرن الأول الهجري.⁽¹⁾

يذكر البكري أن ملوك غاو كانوا مسلمين ويدينون بالولاء لخليفة المسلمين، لكن متى ومن هو الخليفة؟ بينما يشير السعدي أن أول ملك اعتنق الإسلام هو زاكسي حيث يقول: "ماتوا جميعاً وما آمن أحد منهم بالله ورسوله... والذي أسلم منهم يسمى زاكسي يقال له في كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعاً بلا إكراه" أما محمود كعت يقول ان أهالي غاو اعتنقوا الإسلام ما بين 471-475هـ/1079-1082م.

وغاو هي مدينة تقع على ضفاف نهر النيجر الأوسط، كانت تقيم فيها قبائل الصنغاي والتي ستصبح عاصمة لدولتهم بعد دخولهم الإسلام، وأشهر أسرة من هذه القبائل أسرة ضياء حكمت من القرن السابع ميلادي إلى الرابع عشر. غزاها منسا موسى في سنة 1325 وضم عاصمتها غاو إلى مالي، وأخذ من أبناء امرائها رهائن. ومنهم علي كلن الذي فر من الأسر وأسس دولة جديدة، حكمت من 1335 إلى 1493، وأصبح يعرف بسني علي. استقل آل سني عن مالي في سنة 1355 وبدأت توسع حدودها على حساب مالي التي دخلت مرحلة الضعف.

(1) ذة. زوليخة، ج1، مرجع سابق

حكم اسرة سني ثمانية عشر أميرا أعظمهم سن علي أو علي بير حكم من (1465-1492)، وهو أعظم فاتح مسلم في بلاد في بلاد السودان، وضم إليه تنبكتو وجنى، رغم ذلك اتهمه السعدي بالظلم والفجور ومحاربه للعلماء، هاجم علي بير الفولانيين وهم من بربر الصحراء وحين عودته غرق وهو يحاول عبور النهر في سنة 1492 فخلفه ابنه سني بارو وكان مرتدا عن الإسلام فنار عليه محمد بن أبي بكر الطوري في سنة 1493، وأسس أسرة جديدة هي أسرة الأساقي. وقد يكون سني علي خارجي المذهب كما يذكر ذلك السعدي وهو مايبرر ثورة الأسكيا محمد عليه.⁽²⁾

وحين تولى الأسكيا محمد الكبير الحكم عكف على إصلاح البلاد ويبدو انه وجد صدى طيبا فقام بترضية العلماء والفقهاء والعامه وأدخل تنظيمات جديدة على مملكته. التي استمرت إلى الغزو السعدي.

ثانيا: دور الطرق الصوفية

انتقلت المؤثرات الثقافية من شمال الصحراء إلى جنوبها عبر عدة وسائل، منها الطرق الصوفية، وإن كان دورها متأخرا عن بقية الطرق إلا انها واجهت الوضعية الصعبة التي كان يعيشها الإفريقي، وبخاصة الاستعمار الأوروبي التبشيري، وقد كان دور الدور الصوفية يقوم في الغالب على الإرشاد، ويعتمد على نشر تعاليم الإسلام، واستخدام كل الوسائل التي ترغب في الإسلام من وذلك بتأسيس المساجد وفتح المدارس أو شراء العبيد لتعليمهم مبادئ الإسلام وعتقهم. ومن الطرق الصوفية ذات الأصول الجزائرية التي نشطت في جنوب الصحراء، الطريقة التيجانية والطريقة السنوسية.

1- الطريقة القادرية: تعد القادرية من الطرق الأكثر انتشارا في بلاد السودان، والطريقة القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني تأسست بالعراق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وانتقلت إلى بلاد السودان في القرن الخامس عشر عن طريق علماء توات، ومنهم الشيخ أحمد البكائي، ومارست هذه الطريقة نشاطها الديني والثقافي وشجعت الطلبة السودانيين على الرحلة في طلب العلم إلى فاس والقيروان وتلمسان. كما عملت على نشر الإسلام وبناء

² المرجع نفسه، ص. 28.

المساجد والمدارس وشراء العبيد لتعليمهم مبادئ الدين الحنيف ثم عتقهم. لعب إقليم توات وعلى رأسه الشيخ عبد الكريم المغيلي دورا في انتشار الطريقة القادرية في الصحراء الكبرى وبلاد السودان. كما ساهم التجار والمهاجرون في نشر الطريقة.⁽³⁾

وفي القرن التاسع عشر كان للقادرية مراكز نفوذ في كندا مُسَرَدو ببلاد المناندينغ، وفي عدة مناطق من غربي إفريقيا، حيث انتشر الفقهاء والمريدون في أرجاء السودان الغربي يوفدون تلاميذهم لإتمام تعليمهم بالزيتونة والقرويين، حتى إذا أتموا تعليمهم عادوا إلى أوطانهم، ويثبت الباحثون أن الطريقة التيجانية كان طابعها سلمي يعتمد على الإرشاد والتعليم.

2- الطريقة التيجانية: كانت من الطرق الصوفية التي تمثلها الإنسان الإفريقي لما تمتاز به من تماسك في البناء التنظيمي وفي عدم التساهل مع الأجانب وإصلاح الفساد ونشر الإسلام. التيجانية نسبة إلى مؤسسها أحمد التيجاني ولد بعين ماضي في 1150 هـ وتوفي بفاس في 1230 هـ (1814م)، وهو من تلاميذ عبد الرحمن الأزهري. التيجانية طريقة صوفية عسكرية لعبت أدوارا في العهدين العثماني والفرنسي بالجزائر. وقد لاقت نجاحا عظيما في السودان الغربي وبخاصة السنغال والنيجر بفضل شخصية الحاج عمر الفوتي.

عمر الفوتي (1797-1864): ولد عمر بن سعيد تال ببلاد التكرور بمدينة pordo على الحدود السنغالية الموريطانية، من عائلة واجهت الوثنية والاستعمار بشدة، تلقى عمر ثقافته الدينية في بلده وفي سنة 1825 حج عن طريق شمال إفريقيا، في رحلة دامت عقدين من الزمن، حيث زار الحواضر الإسلامية، فالتقى عمر بالشيخ أحمد الغالي خليفة التيجاني، حيث فأعطاه لقب خليفة التيجاني في السودان الغربي.⁽⁴⁾ عاد من الحج عبر السودان الشرقي فكانم حيث احسن استقباله سلطانها، وفي سكوتو عاصمة الهوسا شمال نيجيريا، استقبله محمد بللو وصاهره، ثم مر بتنبكتو وحمد الله بما سنا فاستقبله سلطانها حمد بحذر، واستقر بفوتا جالون حيث رحب به

⁽³⁾ بودواية مبخوت، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد بني زيان،

⁽⁴⁾ نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية،

أثمتها واختار مدينة (الدانكراي) مكانا لتأسيس زاوية لنشر طريقته وكانت أنظمتها دينية عسكرية تشبه الرباط.⁽⁵⁾

كانت بلاده غارقة في الفوضى السياسية والظلم الاجتماعي وتنامت الإمارات الوثنية وبدأت المد الاستعماري في غربي إفريقيا. بدأ الحاج عمر الفوتي بإعلان الجهاد ضد الإمارات الوثنية في سنة 1848، حيث حاول التعاون مع إمارة والتوسع في حوض السينغال الأوسط، وبتغلغل القوات الفرنسية في المنطقة ما بين 1857-1859 أوقف تقدمه غربا وتحول نحو الشرق حيث ضم إليه مملكة "سيقو" في 1862 ومدينة تنبكتو في 1863.⁽⁶⁾ وقد كان له في هضاب فوتاجالون أتباع كثيرون واستسلم له كثير من الزعماء، وطبيعي أن يصطدم بأعدائه وبالممالك التي حوله سواء إسلامية أم وثنية ومنهم من استعان بالفرنسيين. أغتيل الحاج عمر غدرا في 1864، وهو في أوج مجده، وخلفه من بعده أولاده. لكن تفتت الدولة في أيدي الأبناء سهل الزحف الاستعماري الفرنسي في المنطقة.

3- الطريقة السنوسية: وهي من الطرق الصوفية التي جمعت بين الدين والسياسة، كانت لها علاقات مع علماء وحكام المسلمين في مصر واستانبول والجزائر وإفريقيا وغيرها من المناطق، أنشأها محمد بن علي السنوسين الذي ولد بالجزائر قرب مستغانم في سنة 1206هـ (1787م)، تعلم على يد علماء الجزائر، ثم انتقل إلى فاس بالمغرب حيث ظل فيها حتى حصل على المشيخة الكبرى في الجامع الكبير بفاس. وقد ظهرت معالم شخصيته القوية منذ وقت مبكر في حياته، حيث كان يرى ضرورة إصلاح حال المسلمين.⁽⁷⁾ وقصد الحج في سنة 1829 وكان يتوقف في طريقه للتعليم، أخذ السنوسي مجموعة من الطرق الصوفية، وفي مكة أخذ عن محمد بن إدريس الفاسي، وبموت شيخه انشأ زاوية في جبل أبي قبيس في 1837، ثم أنشأ طريقة تدعو إلى الدين وتكافح الاستعمار الأجنبي، وخرج من مكة للجهاد في سبيل الله، حيث استقر

(5) المرجع نفسه، ص. 121.

(6) يحي بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين،

(7) أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها وتطورها

برقة الليبية في سنة 1843 وأسس الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر ، وفي ليبيا أسس عدة زوايا وانتشرت طريقته بسرعة. كان السنوسي عالما قوي العلم ذو طموح وهيبة، وامتازت طريقته بالانضباط والتنظيم. وكان قد تأثر بأحوال العالم الإسلامي في عصره من ضعف الدولة العثمانية والتكاليف الاستعماري على المسلمين فأشعره بضرورة الإصلاح، فكان هدفه إيجاد مجتمع مسلم يستطيع صد الاستعمار، فأقام دعوته على التعليم أولا، فأنشأ الكثير من الزوايا في الصحراء الكبرى، وربط بينها جميعا عن طريق إدارتها بمجلس الإخوان وكانت الزوايا ترفع تقارير دورية للمجلس، وما يميز السنوسية عن بقية الطرق الصوفية، أنها طريقة معتدلة تتقيد بالسنة النبوية، بعيدة عن انحرافات بقية الطرق الصوفية، توجه الجهد البشري إلى مناحي الخير، تدبر شؤونه المالية بالزراعة والتجارة ، كل زاوية مستقلة عن بقية الزوايا، كما تحل مشاكلها عن طريق القضاء.⁽⁸⁾ ولم يقتصر نشاط السنوسية على ليبيا فقط بل وسعت نشاطها إلى دول المغرب العربي، وجنوب الصحراء وبخاصة عندما نقل مركز الطريقة إلى جغبوب.⁽⁹⁾

توفي الشيخ محمد بن علي السنوسي في 1859، وخلفه ابنه المهدي والذي عرفت الطريقة في عهده أوج نشاطها وبخاصة في جنوب الصحراء، ويعود سبب انتشارها إلى طبيعة الطريقة التي تتناسب مع المجتمع الصحراوي، ما تعلق بالمهدي نفسه لاعتقاد الناس في مهديته وطول حكمه الذي استمر حوالي أربعين سنة حيث تجنب الاحتكاك بالعثمانيين وتوغل في الصحراء حيث نقل عاصمته إلى الكفرة في سنة 1895، وبعد أربع سنوات نقل عاصمته إلى "قرو" بالتشاد واتخذها مركزا للحركة ، ويرجع الباحثون سبب ذلك ليتمكن من تنظيم المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، الذي بدأ يتغلغل في السودان الأوسط.

لقد بذل السنوسيون جهودا لإدخال بعض القبائل للإسلام ومنها على سبيل المثال قبيلة بيلي (Baele) التي كانت على الوثنية، كما صححو عقائد الذين كانت معرفتهم بالإسلام سطحية، كما أدخلوا للإسلام شعب التيدا بجبال التبستي جنوب فزان، ولهم دعاة بالحبشة

(8) أحمد صدقي الدجاني، مصدر سابق

(9) عمر الماحي، مرجع سابق،

ووداي غربي تشاد، كان السنوسيون يشتركون العبيد ويعلمونهم في جغبوب، فإذا تعلموا مبادئ الطريقة اعتقوهم وأعادوهم إلى اوطانهم لنشر الإسلام.¹⁰

تصدى المهدي السنوسي للاستعمار الفرنسي وأحرز عدة انتصارات ودام الصدام لعدة سنوات، ولكن وفاة المهدي في سنة 1902 عجل بسقوط زاوية "قرو" بيد الاستعمار، وخلفه من بعده في رئاسة الحركة أحمد الشريف الذي توقفت الحركة في عهده عن الانتشار والتوسع وذلك لاشتغالها بالجهاد المسلح ودامت مقاومة الحركة لمدة عشر سنوات، انتهت باحتلال فرنسا لكل زواياها بالسودان الأوسط.

ثالثا: دور العلماء "محمد بن عبد الكريم المغيلي أنموذجا"

ساهم العلماء في نشر الثقافة العربية الإسلامية ببلاد السودان، منهم الفقيه أبو الأنوار بن الكريم التتلافي، الذي اشتغل بالافتاء والتدريس لمدة طويلة بتنبكتو، والشيخ ابن سعيد البكري وغيرهم وسنقتصر هنا بالكلام عن نشاط محمد بن عبد الكريم المغيلي.

ينتسب محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان، لانعرف سنة ميلاده لكنه توفي في سنة 909هـ (1504م). بعد إتمام دراسته بالشمال انتقل إلى الصحراء فسكن توات¹¹، ولا يعرف سبب انتقاله، ويرجح انه بسبب الاضطرابات السياسية في الأسرة الزيانية، والضعف السياسي والاقتصادي الذي لم يكن راض عنه. استقر المغيلي بتمنيط واتخذها مركزا لنشاطه العلمي حيث أسس الزاوية القادرية هناك.¹²

وجد في توات اليهود يشاركون بنشاط في حركة القوافل التجارية مع السودان، فدعا إلى محاربتهم واستفتى في ذلك علماء الجزائر والمغرب وتونس، وهدم بيع اليهود على رأي الذي وافقوه،¹³ وقد قال المغيلي لمناصريه من قتل يهوديا فله علي سبع مثاقيل، وطهر توات نهائيا من

¹⁰ حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق.

¹¹ إقليم توات يضم أدرار وتيميمون وعين صالح "الجنوب الغربي من الجزائر حاليا".

¹² بودواية مبخوت، مرجع سابق.

¹³ للمزيد ن حول نشاط المغيلي في توات يراجع: يحي بوعزيز ، مرجع سابق

اليهود، وطارد بعضهم إلى تنبكتو، وقد كلفته محاربه لليهود حياة ابنه عبد الجبار الذي قتله اليهود أثناء غيابه ببلاد السودان.

انتقل بلاد الهوسا بشمال نيجيريا، حيث درس بمساجد كاتسنا، ثم انتقل كانو حيث استقر هناك لبعض الوقت وتزوج وأنجب، ثم ذهب، وقد كان للمغيلي نشاط علمي ودعوي كبير في بلاد السودان، وتعلم على يديه العديد من العلماء والفقهاء أشهرهم: عبد الجبار الفجيجي والعاقد بن عبد الله الأنصمي ومحمد بن أبي محمد التازختي وعمر بن أحمد البكاي.

علاقة المغيلي بملوك السودان: التقى المغيلي بأمير كانو "محمد بن يعقوب"، الذي طلب من المغيلي أن يكتب له وصية في شؤون الدولة، وكتب له رسالة أرشده فيها إلى الالتزام الجادة الإسلامية سماها "ما يجب على الأمير من حسن النية للإمارة".

وبعد إقامة طويلة ببلاد الهوسا انتقل المغيلي إلى غاو عاصمة السنغاي في سنة 1502، وقربه ملكها الأسقيا محمد الكبير، وكتب له أسئلة ترجاه الإجابة عليها وفق الوجهة الشرعية في الإسلام.¹⁴

¹⁴ عبد القادر زبادية، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص.9